جماعات العنف التكفيري

الجذور، البنى، العوامل المؤثرة

المؤلف: مجموعة باحثين
العنوان: جماعات العنف التكفيري: الجذور، البنى، العوامل المؤثرة
المراجعة والتقويم: فريق مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي
الإخراج: الديوان للطباعة والنشر والتوزيع
تصميم الغلاف: حسين موسى

الطبعة الأولى: بيروت، 2016

ISBN: 978-614-427-083-7

Groups of Takfiri Violence
Roots Structures and Affecting Factors

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن قناعات مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي واتجاهاته»

مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي
جميع الحقوق محفوظة ©

Center of Civilization
for the Development of Islamic Thought
بناية ماميا، ط5 – خلف الفانتازي وُرلد – بولفار الأسد – بئر حسن – بيروت
هاتف: 826233 (9611) – فاكس: 820378 (9611) – ص. ب 25/55
info@hadaraweb.com
www.hadaraweb.com

مجموعة باحثين

جماعات العنف التكفيري
الجذور، البنى، العوامل المؤثرة

المحتويات

كلمة النَّاشِرَيْن..... 9

كلمة رئيس المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق

(الدكتور عبد الحليم فضل الله) 13

كلمة رئيس مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي

(الشيخ الدكتور محمد تقي سبحاني) 19

الجلسة الأولى: ظاهرة العنف التكفيري: الجذور والخطاب 25

ـ كلمة رئيس الجلسة

(الأستاذ معن بشور) 27

ـ البنى المعرفية والمنهجية للفكر التكفيري: قراءة نقدية في المستند الديني

(الدكتور عبد الأمير كاظم زاهد) 29

ـ العنف التكفيري: من الآخر البعيد إلى القريب

(الدكتور بدر الإبراهيم) 53

ـ العوامل الاجتماعية والسياسية المساهِمة في نشوء التطرّف الديني
(الدكتور عبد الغني عماد) 73

الجلسة الثانية: المؤثرات الإقليمية والدولية وعلاقتهما ببروز العنف التكفيري 103
ـ كلمة رئيس الجلسة: التوظيف الدولي والإقليمي للعنف التكفيري
(الأستاذ بلال حسن التل) 105
ـ الجهات الفاعلة الحكومية، والقرارات المعتمدة، والبروز الكارثي للتطرّف التكفيري
(الدكتور محمد مرندي) 113
ـ الجماعات التكفيرية والقوى الدولية: الرعاية وتقاطع المصالح
(الدكتور جورج قرم) 139
ـ العنف التكفيري من منظور القانون الدولي
(الأستاذ الدكتور حازم محمد عتلم) 145

الجلسة الثالثة: البنى التنظيمية والمالية وأنماط العملين العسكري والاجتماعي وآليات الاستقطاب 161
ـ كلمة رئيس الجلسة
(الشيخ محمد حسن زراقط) 163
ـ العلاقة بين الجماعات: التحالفات والنزاعات
(الأستاذ عبد الله سليمان علي) 165
ـ تنظيم الدولة الإسلامية «داعش»: البنى والهياكل التنظيمية والمالية وآليات الاستقطاب
(الأستاذ مصطفى زهران) 199
ـ جماعات العنف الجهادي: البنى العسكرية وأساليب القتال
(الأستاذ سمير الحسن) 237

ـ انخراط الفئات الشابة في جماعات العنف المتطرفة: دراسة حالتي تونس وليبيا
(الأستاذ نوفل صدّيق) 275

الجلسة الرابعة: الإعلام وجماعات العنف التكفيري 281
ـ كلمة رئيس الجلسة
(الدكتور عبد الله بوحبيب) 283
ـ الاستراتيجية الإعلامية لداعش: الخطاب والقدرات والوسائل
(الأستاذ الدكتور محمد محسن) 285
ـ وسائل الإعلام العربية والغربية وموقعها من التنظيمات الدينية والمتطرفة
(الدكتور محمد علوش) 309

الجلسة الخامسة: قراءات ختامية في ظاهرة العنف التكفيري وسبل المواجهة 345
ـ كلمة رئيس الجلسة
(الشيخ ماهر حمود) 347
ـ تنظيم القاعدة: الأجيال الثلاثة: رؤية عسكرية
(الأستاذ محمد خواجة) 349
ـ التكفير عند جماعات العنف التكفيرية: الجذور والعوامل وسبل المواجهة: قراءة تاريخية وسيوسولوجية
(الدكتور يحيى فرحات) 389
ـ جذور الإرهاب، ومصطلحاته، والمواقف السياسية المحيطة به، وسبل معالجته
(العميد المتقاعد إلياس فرحات) 429

ـ إعادة صياغة مفهوم الإسلام السنّي ودوره في مواجهة الإرهاب
(الدكتور أحمد موصللي) 455

ملحقات..... 459
ـ جماعاتُ الإسلام السياسي: الصعود.. إلى الهاوية
(الدكتورة هلا رشيد أمون)..... 461
ـ الجماعات التكفيرية: الجذور، التحالفات، أساليب التجنيد، وسبل المواجهة
(الدكتور ياسر الشاذلي) 479
ـ كيف هزم لبنان بوحدة شعبه وجيشه ومقاومته الإرهاب التكفيري، ولماذا؟
(الدكتور طراد حمادة)..... 503

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كلمة النّاشِرَيْن

تعمل دوائر عدّة في العالم على الرّبط بين الإرهاب والعنف وبين الإسلام، حتّى كاد يتحوّل هذان المفهومان المركّبان: «العنف الإسلاميّ»، و«الإرهاب الإسلاميّ» إلى مفهومين مأنوسين قلّما يلتفت السامع إلى إشكاليّة الربط بينهما.

وشئنا أم أبينا وأعجبنا هذا الاقتران أم لم يعجبنا فهذا هو الواقع الذهنيّ. وممّا يزيد الطين بلّة أنّ الأمر لم يقتصر على الربط الذهني بين الإسلام والعنف أو الإرهاب؛ بل انضمّ إلى ذلك وجود جماعات وحركات منظّمة ناشطة في عدد من بلاد العالم الإسلاميّ وغيره، تعمل تحت راية الإسلام وتمارس عنفها وإرهابها باسم الله والدين. وقد دعانا هذا الأمر إلى معالجة هذه الظاهرة للكشف عن الخلفيات والبنى الفكرية التي تستند إليها هذه الجماعات على تنوّع انتماءاتها، بهدف معرفة تركيبتها الفكرية والتنظيمية والتفكّر في الحلول والآليّات الناجعة لمواجهتها.

وبعد مناقشات وجلسات عملٍ عدّة انتهينا إلى الحاجة إلى التداعي إلى درس هذه الظاهرة والبحث في أسبابها وفي مدى ارتباطها بالفكر، ومدى تأثير الواقع الاجتماعي في نموّ هذه الحركات وانتشارها. واستقرّ

الرأي أخيرًا على عقد مؤتمر علميٍّ اخترنا له عنوان: «جماعات العنف التكفيريّ: الجذور والبنى والعوامل المؤثّرة»، عقد على مدى يومين. دعونا إليه عددًا من المهتمّين باحثين ومثقّفين من دول عدّة.

وقد بيّنت لنا النقاشات التي دارت بين المؤتمرين وردود الأفعال على المداخلات التي قُدِّمت أنّ هذه الظاهرة تستحقّ الدرس والمعالجة على الرغم من ما يبدو أنّه اهتمامٌ زائدٌ بها. ومن الملاحظات التي يمكن أن نشير إليها في هذه العجالة:

أ- إنّ العنف والإرهاب من الظواهر الإنسانيّة أكثر ممّا هما ظاهرتان دينيّتان، فلا يكاد يخلو مجتمع من المجتمعات البشريّة من إرهاب وعنف يمارس بهذا الشكل أو ذاك. ويبدو أنّ توقّع الملائكة حين قالوا لله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، كان توقّعًا مصيبًا.

ب- إنّ العنف غير الدينيّ أعمق وأكثر إضرارًا بالبشريّة من العنف الممارس تحت راية الدين، فإذا كانت كثير من الحروب خيضت لأسباب ودوافع دينيّة سواء كانت حرب المئة عام أو أكثر منها أو أقلّ، فإنّه تكفينا الإشارة إلى الحربين العالميّتين اللتين خيضتا دون أن يكون لأيّ دينٍ فيهما راية.

ج- والفارق الأساس يكمن في أنّ من يقتل باسم الدين يصرّح بدوافعه ويتلو شعاراته الدينيّة على ضحاياه، أمّا من يقتل لأسباب أخرى لا يجد نفسه ملزمًا بالتصريح بهذه الدوافع.

د- يبدو لنا أنّ الدين نفسه هو ضحيّة من ضحايا العنف والإرهاب، وذلك أنّ الدين في كثيرٍ من الحالات يتحوّل إلى غلاف تُغلّف به سائر الدوافع. وبالتالي يتجلّى العنف المختزن في النفوس التي تمارسه في عنفٍ دينيٍّ. وممّا يؤكّد هذا أنّنا نجد في الدين الواحد من يبرّر عنفه بدوافعه الدينيّة وآخر يبرّر رفضه للعنف بدوافع دينيّة أيضًا.

وبعد عقد المؤتمر وتلقّينا ردود أفعال مرحّبة بنتائجه وجدنا أنّ من المفيد تحويل وقائعه إلى كتاب. فدرسنا الأمر واستقرّ الرأي أخيرًا على أن تنشر وقائع المؤتمر كما هي مع بعض التعديلات التي لا تخرج الكتاب عن كونه كتاب مؤتمر سوى تحرير لغويٍّ.

ولا بد من الإشـارة إلـى أن جميع المشاركين في المؤتمر قدموا أبحاثهم مكتوبة باستثناء بعضهم، فاضطررنا إلى اعتماد التسجيلات الصوتية مع صياغتها بما يتناسب مع طبيعة النص المكتوب، وقد أشرنا إلى هذا داخل الكتاب. والأمر نفسه فعلناه بالنسبة إلى كلمات رؤساء الجلسات المحترمين.

وفي الختام لا يسعنا إلا شكر جميع من أسهم في إنجاح هذا المؤتمر ولا ندخل في متاهة ذكر الأسماء لكي لا نقع في التقصير. ونأمل أن ينال هذا العمل إعجاب قرائنا الأعزاء، ولا ندعي استيفاء الكلام في معالجة هذه الظاهرة؛ ولذا لا بد من أن تُستكمل خطوتنا بخطوات لاحقة، علنا نسهم في تخطي هذه الأزمة التي ألمت بأمتنا في العصر الراهن، والله ولي التوفيق.

مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي

المركز الاستشاري للداراسات والتوثيق

بيروت، 2016

كلمة رئيس
المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق

الدكتور عبد الحليم فضل الله

نرحب بكم أجمل ترحيب في مستهل هذا المؤتمر الذي يجمع نخبة من الباحثين والمفكرين والمتخصصين، والتي ستناقش على مدى يومين في خمس جلسات جذور العنف التكفيري وأسبابه، والعوامل الفكرية والاجتماعية والجيوسياسية التي ساهمت في تفشي جماعاته وانتشار خلاياه في طول العالم الإسلامي وعرضه. وتملؤنا الثقة بأن تشكل أعمال المؤتمر وأبحاثه وخلاصاته إضافة علمية مفيدة في مجال فهم منطويات هذه الظاهرة وخلفياتها، وذلك بقدر ما يتسع له المقام الراهن المشحون بالقتل والتوحش، من دقة منهجية، وحصافة موضوعية.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو الآتي: هل تستحق هذه الجماعات مزيدًا من البحث، وهي التي كشفت عن نفسها أيّما انكشاف في السنوات الأخيرة، وسال في تحليلها حبر غزير، بلغات عدة ومن قبل باحثين كثر؟

الإجابة هي نعم. فثمة حاجة ماسة لرصد التحولات المتسارعة التي مرت بها هذه الجماعات، وترقّب طفراتها الآتية، فهذا يزودنا من جهة بالمعرفة الضرورية لاحتوائها وإخماد نيرانها واستدراك مخاطرها، ويساعد

من جهة أخرى على الاتفاق بشأن طبيعة ما ترتكبه من عنف، وما تتسبب به من أزمات.

فالجماعات التكفيرية إنما تدشن بحسب بعض الآراء حقبتها الخاصة في ليل العنف البشري الطويل، فتدلو بدلوها في حروب السياسة والعقيدة؛ تنسج في ذلك على منوال من سبقها، وتستلهم خطواتها من أولئك الباحثين عن ولاداتهم الملحمية، وأمانيهم الإمبراطورية، وهواماتهم العقدية، في ركام المدن وسيول الدماء وحطام المجتمعات.

لكنها، وفق وجهة النظر الأخرى، ليست مجرد حقبة جديدة للعنف، ولا فصلًا ملطخًا آخر من فصول التاريخ. فالأفعال الدموية لتلك الجماعات التي تتباين تسمياتها ومرجعياتها وتتلاقى أساليبها وممارساتها، إنما تعيد تأسيس فكرة العنف على نحو مفارق لسياقاته المعروفة، في هذا الجزء من العالم على الأقل.

فما نواجهه اليوم ليس عنفًا تقليديًّا سياسي الطابع، هدفه الصراع على السلطة أو تثبيت الهيمنة، أو محاربة الاستبداد، أو الدفاع عن مصالح فئات وطبقات. وليس عنفًا اجتماعيًّا، مردّه إلى الفقر والتهميش والتمييز والاستبعاد والاستغلال، ولا عنفًا اقتصاديًّا يدور مدار تقاسم الثروات والسيطرة على الموارد، ولا حتى عنفًا مقدّسًا، مع أن خناجره تُرفع باسم الدين، وتطعن زعمًا باسم الله.

لقد اختلقت هذه الجماعات في أقل من عقد من الزمن صنوفًا من الأهـوال، وأشكالًا من التنكيل بالضحايا لم يعرف هذا الشرق مثيلًا لها في تاريخه القائم على نصاب تعددية مشهود، فكان عنفها بخلاف ما سبقه أو تزامن معه، عنفًا مشهديًّا خالصًا، مطلوبًا بذاته ومكتفيًا بنفسه. وهو عنف متبجح بدائي لا يبحث عن شرعية تبرر حصوله، أو تخفف من وقع

ارتكاباته؛ بل يجد سحره وجاذبيته في إبراز ما فيه من قسوة وضغينة، وفي الإفصاح عما ينطوي عليه من حقد وتمييز وكراهية.

على أن جماعات العنف التكفيري التي شهدنا صعود خطها البياني في العقدين الأخيرين، والتي تبدلت أولوياتها وأهدافها مرات عدة، إنما تمثّل وبكل ما للكلمة من معنى ردة عن ثلاث ثورات عرفتها البشرية:

ثورة أخلاقية أسست لها الديانات السماوية وأطلقها الإسلام من أسر الجاهلية، وزرع قيمها التأسيسية في صلب المسيرة الإنسانية الكبرى الباحثة عن الأخوّة والرحمة والعدالة والقسط، لتصير الأخلاق جزءًا لا يتجزأ من حياة الفرد، وشرطًا من شروط انتظام الجماعة، ومبدأً لتعارف الأقوام والجماعات، وقيدًا لا فكاك منه في علاقات التآلف والخصومة، وفي أحوال الرخاء والشدة.

وثورة معرفية، مجّدت العقل وجعلت حياة الناس وتجاربهم عقلانية ومعقولة، عقلانية بمعنى السعي إلى تحقيق غايات مفيدة، ومعقولة بمعنى أن سعي فئة ما إلى تحقيق غاياتها الخاصة لا بد من أن ينسجم مع الغايات العامة للمجتمع، ويحظى بحد أدنى من المقبولية والاعتراف من الفئات الأخرى.

وهي أيضًا ردة عن الثورة الحقوقية، التي أتت بعد قرون من التناحر والتقاتل والظلم، ولاسيما في داخل الغرب أو من خلاله. ثورة حقوقية عبّرت عنها شرائع ومواثيق كان لها اليد الطولى في تكريس حقوق الشعوب في الحرية والكرامة والاستقلال وتقرير المصير، وحفظ حق الإنسان في التفكير والتعبير، والحصول على نصيب منصف من الدخل، وحصة عادلة من الإنتاج.

لقد كان الغرض الأبعد لثورة الحقوق هذه هو حماية الفئات الأضعف

من غطرسة القوة، وتعسّف السلطات على اختلافها، سياسية كانت أم اجتماعية، أو لاهوتية، وصوْن الحق بالحياة واحترام الذات الإنسانية في أوضاع الحرب والسلام على حد سواء.

إن حركات العنف التكفيري هي على طرف نقيض من ذلك، فمنطقها الأخلاقي المتهافت يتناقض مع الجوهر الأخلاقي للوحي الإلهي، وخطابها السياسي اللاعقلاني واللامعقول يعاند وعلى نحو انتحاري حركة التاريخ، وهي تريد أن تمزّق، هكذا وبضربة سيف واحدة ودون أدنى حظ من النجاح، المواثيق والعهود الإنسانية، في نزعة دنيوية معادية للحضارة المادية ومجافية للمبادئ الروحية والمعنوية.

على أن استثنائية حركات التكفير وعنفها المفارق، لا ينكر أنها كانت وما زالت، جزءًا لا يتجزأ من سياق أوسع من حدود الظاهرة نفسها. فصعودها لا ينفصل عن دعوات دينية وعقدية استوطنت هذا الشرق قبل قرنين، وبنَت عصبياتها على الانغلاق ونبْذ حق الاختلاف، بل وإنكار حق الآخر المختلف بالوجود، مستندة في ذلك إلى رفض لا هوادة فيه للاجتهاد والرأي، فأطاحت في طريقها بالعقل، وقهرت روح النص، وجرّدت أعماقه من الأمثولات والمعاني التي تعلن عن نفسها تباعًا وباطراد، مع توالي العصور وتعاقب الأزمنة وتبدّل الأحوال.

لقد رفعت هذه الدعوات كل محاججة مشروعة إلى مرتبة الشقاق والفرقة والإقصاء، متجاهلة أن تراث الإسلام الغني والغزير لم يجمد على تأويل واحد، ولم تُعرف فيه حدود فاصلة ولا فوارق صارمة بين التيارات العقدية والفلسفية والمذاهب الفقهية المتدفقة في كل اتجاه، تلك التي تنازعت في ما بينها مرة، وتحاورت أو تكاملت في ما بينها مرّات عدّة، في سيولة وتشابك قلّ نظيرهما.

ولا ينفصل صعود الحركات التكفيرية وعنفها عن تواطؤ مضمر مع

قوى دولية وإقليمية، وجدت فيها ضالتها، من أجل مدّ النفوذ وتبرير التدخل وتصعيد الهيمنة، واستنزاف رافضي الأطماع الخارجية ومقاومي مشاريع الاحتلال والسيطرة والاستيطان، في زمن صار ممكنًا فيه للأسف، خلط الأوهام بالحقائق، وتبرير عنف مغالٍ وعدمي بنضالٍ نبيل ومشروع.

ولا ينفصل بروز هذه الجماعات أيضًا عن إخفاق مجتمعاتنا في بناء دولة حديثة ذات مشروعية راسخة، وعن اقتصادات الريع والغنيمة التي أفاضت على هذه الجماعات سيلًا من الدعم المالي الرسمي وغير الرسمي، فتمكّنت مستعينة به، من تطوير بُناها التنظيمية، وتقوية هياكلها العسكرية، وإبهار الحواضن الاجتماعية المفقرة والمتروكة لمصيرها، وها هي تقتنص من أبنائها أولئك المتروكين في قاع المجتمعات، والواقفين على قارعة اقتصادات الريع والنهب والفساد، لتزجّهم في آلة عنفها، وتحوّلهم إلى وقود في حروبها. وقد سهّلت الثورة التكنولوجية بدورها عمليات التجنيد، وساهمت بأيسر السبل في نشر غواية القتل والتدمير والعبث بعقول طريّة يافعة.

إن هدف هذا المؤتمر هو التعمّق في فهم هذه الظاهرة، وإبراز الآراء المتنوعة وحتى المتباينة في تحليلها. والتحدّي الذي سنواجهه في هذين اليومين، أن ننجح بتمييز ما هو سياسي عما هو دراسيٌّ وعلمي، وأن نقدّم أفكارنا وتحليلاتنا بجدية وصراحة وحرص، دون أن نلامس حدود التعبئة هنا، أو نمسّ عصبًا مشدودًا هناك، وطموحنا هو إحداث نقلة منهجية تضع الجماعات التكفيرية خارج خطوط الانقسام المعروفة والمشروعة في الإسلام بين المدارس والمذاهب، وتُلقي بها بعيدًا عن التيار الرئيسي العريض الذي يضم اجتهاداته واتجاهاته الرئيسية كافة.

كلمة رئيس
مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي

الشيخ الدكتور محمد تقي سبحاني

لا شكّ في أنّ قضيّة التكفير والإرهاب من أخطر القضايا التي تواجهها الأمّةُ في العصر الراهن؛ بل العالم كلّه، كما هي من أكثر الظواهر المعاصرة تعقيدًا. ويبدو أنّ هاتين الظاهرتين سوف تبقيان في رأس لائحة الأولويّات الثقافية والسياسيّة في السنوات القادمة. ويكفي لإثبات أهميّة هاتين الظاهرتين أنّ عددًا كبيرًا من المؤسسات الأمنية والثَّقافية على المستوى المحلّي والإقليمي والعالميّ جعلت منهما محورًا لاهتمامها، ومن المؤشّراتِ الدالّةِ أيضًا أنّ وسائل الإعلام العالمية لا تخلو من خبرٍ عن شأنٍ مرتبطٍ بهاتين الظاهرتين وبشَكلٍ يوميٍّ، ولأجل هذا قلّما تُعقد محادثات بين طرفين سياسيّين ولا يكون الإرهاب التكفيريّ ثالثَهما، وقلّما يؤخذ موقفٌ سياسيٌّ لا يذكر فيه الإرهاب أو أحد إخوانه وأخواته.

وقد شهدت السنوات الأخيرة عددًا من المؤتمرات والندوات العلميّة لدرس هذه الظاهرة وما زالت محورَ دراسةٍ واهتمام. وهذا المؤتمر محاولةٌ تُضَمّ إلى المحاولات السابقة في هذا المجال. ونأملُ من هذا المؤتمرِ استئنافَ الجهد العلميّ في مجال عرض الأفكار والآراء وطرح السبل والوسائل التي تُسهِم في فهم هذه الظاهرة واكتشاف سبل التغلّب عليها.

وممّا نحن مدعوّون إليه في مثل هذه الحلقات العلمية توضيحُ المصطلحات وتحديدُها، في سبيل تأمين التفاهم بين المتحاورين؛ وذلك أنّنا نرى أنّ كلماتٍ مثلَ: الإرهابِ، والعنفِ، والتكفيرِ، وما شابه من المفاهيم التي يكثر استعمالها، ربّما لا تحظى باتّفاقٍ أو إجماع على دلالاتها.

نأمل في هذا المؤتمر أن نضُمّ جهدًا إلى جهدٍ، وفكرةً إلى رأيٍ، لعلّنا نُوفَّق إلى الكشفِ عن بعض الزوايا الحقيقيّة والخفيّةِ أحيانًا لظاهرة الإرهاب التكفيريّ، بعيدًا عن الضوضاء الإعلامية والصخب السياسيّ. ومن باب الرغبةِ في تحقيق تفاهم دقيق، أميلُ إلى الحذر من مجالين يتمّ فيهما استعمال كلمتي الإرهاب والتكفير، وهذان المجالان هما: النظامُ المعنائيّ الحاكمُ على الخطاب السياسيّ المعاصر الذي يسمح بالاستناد إلى هذه المفاهيم لإدانة الآخر المختلِف أو لتبرير الذاتِ وما ترغبُ في الإقدامِ عليه من فعلٍ.

والمجال الثاني هو الخطابُ الدينيّ التراثيّ الحافل بالمصطلح الثاني ومشتقّاته أي بمادّة كَفَرَ وما يُشتقّ منها. ولا شكّ في أنّ للتطرّف والعنف بأشكالهما المتعدّدة جذورًا في تربةِ السياسة والأوضاع السياسيّة، كما لهما امتدادات وتأثيرٌ وتأثّرٌ بالفكر الدينيّ عبر التاريخ، ولكنّ حصرَ هاتين الظاهرتين المدمّرتين للإنسان والحضارة الإنسانيّة بمنبعي الدين والسياسة لا يَحُلُّ المشكلة ولا يقضي عليها، وإنّما يترك جمرَها تحت الرَّماد ليعودَ إلى الاشتعال من جديد في ساحة الاجتماعات الإنسانيّة فيُحرِق الأخضر واليابس كما يفعل في هذه الأيام.

بلى؛ إنّ العنف والإرهاب وما شابه من ظواهرَ تمتدّ جذورها في التاريخ الإنسانيّ كلّه، ولا يكاد يخلو مجتمع من المجتمعاتِ الإنسانيّة من هذه اللوثة الفكريّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة، ولكنّ النسخ المعاصرة

للإرهاب والتكفير، تمتازُ عن أسلافها القديمةِ بمجموعة من الخصائص نعرض أهمّها في ما يأتي:

أولا: ما نواجهه اليوم ليس مجرّد عنف وإرهاب؛ بل نحن نواجه تنظيرًا لهما، يبغي إضفاء القداسة على هذه الممارسات. فَأَنْ يُمارِس المستبدّون أو المتديّنون الإرهاب شيءٌ، وأَنْ ينظِّر هؤلاء لممارساتهم ويستندوا في تبريرها إلى المبادئ الفلسفيّة والكلامية والفقهية والأخلاقيّة شيءٌ آخرُ مختلفٌ تمامَ الاختلافِ عن الممارسة المجرّدة. ومن هنا، ينبغي أن يُدرسَ التكفيرُ وإرهابُه من هذه الزاويةِ؛ للكشف عن المبادئ النظرية والفكريّة التي يستند إليها.

ثانيًا: السمة الثانية التي تَسِمُ الإرهاب المعاصر هي تحوّله إلى ظاهرةٍ عالميّة، لا تقتصر على دينٍ دون آخر، ولا تصيب مجتمعًا إنسانيًّا دون غيره، ولا تيّارًا فكريًّا دون قرينه، فالإرهابُ يُمارَس في هذه الأيّام في المجتمعات كلّها ومن قبل جميع التيّارات، ومن هنا يمكننا الحديث عن إرهاب إسلاميٍّ، وآخر مسيحيٍّ، وثالث يهوديٍّ أو بوذيٍّ إلى آخر اللائحة، كما إنّ الإرهابَ أو العنفَ الذي يستند إلى العلمانيّة حجزَ له محلًّا وأيّ محلٍّ في التاريخ الإنسانيّ المعاصر خلال حربين خاضهما مطلع القرن الماضي. وخاض غيرهما بالتقسيط خلال ذلك القرن والقرن الذي نحن فيه. وما نقوله عن الإرهاب يصدقُ على التكفير على الرغم من تبدّل المصطلح من مدرسة فكريّة أو دينيّة إلى أخرى.

ومن هنا لا ينبغي أن نَغفَل عند معالجة ظاهرة التكفير والإرهاب عن النماذج الأخرى التي قد تختلف في الصورة؛ ولكنّها تشترك في الجذور التي تستند إليها. أليس اتّهامُ المتديّنين من قبل التيارات العلمانية بالتخلّف والرجعيّة شكلًا من أشكال التكفير؟ أليس الاتّهامُ بالخيانة الوطنيّة عند أول اختلافٍ أو تنافس سياسيٍّ شكلًا من أشكال التكفير غير الدينيّ؟

ثالثًا: وبناءً على ما تقدّم أعلاه لا يمكن حصر الإرهاب في بعده الديني أو الثقافيّ؛ بل لا بدّ من النظر إلى سائر الأبعاد التي تشترك معًا لتكوين ظاهرةِ الإرهـاب المعاصر. واشتراكُ هذه العناصر جميعًا في ولادة هذه الظاهرة هو سمةٌ من سماتِ النسخة المعاصرة.

ولقائلٍ أن يقول هذه هي حال الظواهر الاجتماعيّة كلّها؛ حيث تتضامنُ مجموعةٌ من العوامل لإنتاجها. ونحن نوافق على هذا التصوّر ونؤمن بأنّ الظواهر الاجتماعيّة الإنسانيّة لا يمكن تفسيرها بنظريّة العامل الواحد؛ ولكنّ الملفت في هذه الظاهرةِ محلِّ الـدرسِ هو اشتراكُ هذه العواملِ وتضامُنُها الكاملُ إلى حدٍّ لا يسمح بتشخيص هويّةِ هذه الظاهرة ووصفِها بأنّها دينيّة أو سياسيّة أو ما شابه. وهذا ما يسمح لنا بالدعوة إلى عدّ الإرهـاب والتكفير موضوعًا لدراسات بين-تخصّصيّة، تشترك فيها علومٌ عدّة مثل: علم الاجتماع وعلم النفس مضافًا إلى الدراسات الفلسفيّة والفقهيّة والأخلاقيّة.

رابـعًـا: ثمّة سـؤال يُـطرح فـي الـدراسـات الحديثة حـول التطرّف التكفيريّ، وهو: هل هذا الاتّجاه قديمٌ يستند إلى التراث ويمثّل نظرة رجعيّةً وتطلّعًا إلى الوراء، أم هو نمطٌ حداثويٌّ من التفكير أو ما بعد حداثويّ؟ ولا تتّفق الإجابات في الردّ على هذا السؤال، وإنما تتعدّد بتعدّد الاتّجاهات وتتنوّع زوايا المقاربة، ولا تُعْدَم أيّ مقاربةٍ من الشواهد التي تؤيّد ما تنتهي إليه، وتودُّ إثباتَه.

إنّ وجودَ نماذج من هذا التطرّفِ في المواقفِ الفكريّةِ والعمليّةِ في التراث الفكريّ الإسلاميّ يدعم النظرة القائلة بانتماء هذه الظاهرة إلى أصول إسلاميّة، ومن النماذج التي تذكر عـادةً: الخوارج والحشّاشون، وغيرُهم من الفرقِ التي عبّرت عن نفسها في الجدالات الكلاميّةِ والفقهيّةِ والسياسيّةِ. ومن هنا، ثمّة من يرى أنّ ما نشهدُه اليوم من تكفيرٍ وتطرّفٍ فيه،

إنّما هو إعادة تجسيد لتيّارات وُلِدت في البيئةِ الفكريّةِ الإسلاميّةِ، وتبنّت نظرةً سطحيّةً أحادية الجانب إلى الدين، وجانبت العقلانيّة والإنسانيّة وتجنّبتهما في تعاملها مع النصوص الدينيّة. ولسنا ننكر على هذا التصوّر نصيبَه من الصحّة؛ ولكنّنا في الوقت نفسه لا نقدر على تجاهل العناصر الحديثة التي قد يستند إليها هـذا التطرّف، ومـن ذلـك: التعاملُ الآلـيّ والبراغماتي مع الدين، والاستفادة من النماذج والأساليب الحديثة في الإدارة السياسيّة والاجتماعيّة واستخدامها في تطبيقٍ خاطئٍ للأفكار الدينيّة، واقتباس تجاربَ فاشيّةٍ وغيرِها بغيةَ تحقيق الغايات التي يَحسَبُ أصحابُها أنّها تخدم أغراضَهم الدينيّة.

وأخيرًا لا ينبغي أن نَغفَل، في تحليلنا لهذه الظواهر المشؤومة التي نحن بصدد معالجتها، عن أنّ أبرز قياداتها تلقَّوا تعليمًا حداثويًّا بكلّ ما للكلمة من معنى، وذلك لفتراتٍ غيرِ قصيرةٍ من أعمارِهم؛ بل إنّ بعضهم له تاريخ من تبنّي الفكرِ غير الدينيّ واعتناقه، ثمّ تحوّل بعد ذلك إلى التديّن، صادقًا أو لمآربَ أخرى. ومن هنا، نرى ضرورة ملاحظة هذه الخصوصيّات الفريدة التي تَسِم الإرهابَ الموسومَ بأنّه دينيٌّ بسمتها الخاصّة، وتسهمُ في تشكيل هويّته الفريدة التي تميّز بينَه وبين النسخ القديمة التي تشاركه في الفعل والأثر، وفي شيء من العناصر المكوّنة للهوية.

ما ذُكِر أعلاه، ما هو إلا باقةٌ من الأسئلة والملاحظات التي تستحقّ التأمّلَ فيها وتقديمَ الإجاباتِ والأطروحاتِ حولها بطريقةٍ علميّةٍ، مع اعتمادِ منهجيّةٍ واضحةِ المعالم؛ لكي نخرج من هذا المؤتمر الكريم وقد أضفنا إلى الطروحات المقدّمة طرحًا، وإلى الأفكار المطروحة فكرةً.

نعم؛ إنّ مواجهة هذه الظاهرة المدمِّرة للإنسان والحضارة الإنسانيّة يجب أن تكون متعدّدة الأبعاد بدءًا من السياسة والأمن والاقتصاد والثقافة والفكر، ولكن تبقى المسؤوليّة الأثقل ملقاةً على عاتق المثقّفين وبخاصةٍ

المشتغلين على الفكر الدينيّ، وهم مطالبون بتحمّل هذه المسؤوليّة التاريخيّة الخطيرة، وإنّ أي تساهل أو استخفافٍ في هذا المجال سوفَ يجعلنا في مواجهة محكمة العدل الإلهيّ قبل أن يجعلنا في مواجهة محكمة التاريخ التي لا ترحم.

ومن هنا، نحن مدعوّون إلى إعادة النظر في تراثنا الفكريّ ونظامِنا القيميّ لنخرِج منهما كلّ ما يمكن أن يكون مولّدًا للإرهاب والعنف غيرِ المشروع وغير المبرَّرِ أخلاقيًّا ودينيًّا. ومن جهة ثانية على كل ناطق باسم الفكر والثقافة أن يُسمِع الدنيا صوت إدانته لهذا النمط السلبيّ من التكفير والتفكير، لكي يعلوَ صوتُ العقلِ والعقلانيّة على صوتِ الجهلِ والجهالةِ.

وفي الختام أجدّد الشكر لجميع الإخوة والأخوات لتشريفهم إيّانا واستجابتهم دعوتَنا إلى هذا اللقاء العلميّ، وأسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلنا من الذين يُـؤَدُّون واجبَهم في تحمّل مسؤوليةِ هذه الرسالةِ الملقاة على عواتقنا جميعًا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.